الحضارة اليهودية المسيحية للغرب

المسارات والتحوّلات

عزالدّين عناية ■

خيَّـم علـى التاريخ اليهـودي المسيحي جوٌّ من الخصـام والعداء بين أتبـاع الملّتين، باستثناء القـرن الأوّل الـذي شهد فـي موفّاه خـروج المسيحية مـن رحـم المعبـد اليهـودي، وانفصالهـا وتشييدهـا هيكلهـا الخـاص، بعـد أن بقيـت ردحـاً مـن الزمـن تُعـرف بالمسيحيـة اليهوديـة. وبلغ ذلك العـداء أعلى تطوّراتـه في حقبـة اللاساميـة، التي تخلّلتهـا فترات انفـراج محـدودة. ولـم تهفت تلـك المكابَـرة الجادة مـن الطـرف المسيحـي إلاّ بانقشـاع سطـوة الفاشية فـي إيطاليـا والنازيـة فـي ألمانيـا. لقـد كان تاريـخ العلاقـات اليهودية المسيحية تاريخ معاناة. أقرّ بذلك البابـا يوحنـا بولس الثانـي في نداءاته المتكـرّرة إلى الكاثوليـك بغـرض مراجعـة علاقاتهم حيـال الشعب

■ أستاذ تونسي بجامعة لاسابيينسا في روما.

اليهـودي[1]؛ إذ كانت حصيلة العلاقات بيـن الديانتين ـ طوال الألفيتين ـ بالفعل سلبية[2].

ففـي البـدء، مـا تيسّـرت الجـرأة الوجوديـة للحواريـيـن ـ بعـد غياب المسيح عليه السلام ـ لبلورة خط مستقلّ، حتى جاء بولس وبعض من رفاق التبشير الأوائـل، فملؤوا المسيحية ثقةً وإيماناً. خرجـت المسيحية ـ على إثره ـ من ضيـق هيكل مشترك إلى رحابـة معبد مستقلّ، سمي لاحقـاً كنيسة، وبدأت فـي تأصيل عقائدها، وتقعيد لاهوتها، واستمـرّ ذلك التباعد دهراً؛ غير أن ذلك الارتباط البدئي عاد ليدغدغ الكنيسة مجدّداً مع منتهى الألفية الثانية؛ ولكن هـذه المرة تحت عناوين مغايرة ومبرّرات مختلفة. فهل أنّ المسيحية ـ باقترابهـا فـي الراهـن ممـن تهـوّدوا ـ تسعـى لتكفِّر عن ذلـك الانشقاق التاريخـي بخروجها من الهيكل، ليبلغ بها الأمر حتى يتباكى حبرها الأعظم عند حائط المبكى، ويتتبّع مسلك أنبياء التوراة في أرض فلسطين، أمِ الأمر ارتباطٌ أمْلَتْهُ السياسة وتبدّل الأيام على اللاهوت؟

ماضٍ يأبى الرحيل

منذ أن غـدت المسيحية ديانة الإمبراطوريـة الرومانية[3] رافقت أوضاع الذلّـة اليهود، ودفعت تلـك الغلبة الهيئات المجْمعية داخـل الكنيسة ـ ومنذ

1 ـ يوحنـا بولـس الثاني: خطـاب موجّه إلى مندوبـي المؤتمر الأسقفي المكلفيـن بالعلاقات مع اليهودية (6 مارس 1982) *Insegnamenti* 51, 1982, 743-747.

2 ـ لجنـة الكرسي الرسولي المكلّفة بالعلاقات مـع اليهود، ملاحظات بشأن العرض الصائب لليهود واليهودية في خطب وتعاليم الكنيسة الكاثوليكية (24 جوان 1985) VI, 1: Enc. Vat. 9, 1966.

3 ـ لم تتحوّل المسيحية إلى ديانة غالبة ومنفتحة أمام الجميع إلا حين قبلت بالمبدأ الذي عبر عنـه ترتليـان القرطاجي بقوله: «يصبح المرء مسيحيّاً ولا يرث الدين بالمولد»، وهو بخلاف ما كان شائعاً بين اليهود.

Tertulliano, *Apologetico*, XVIII, 4.

وقت مبكّر ـ للتضييق عليهم وإصدار القرار تلو القرار لضبط التعامل معهم، بدءاً من مجمع إلفيرا سنة 306م، حيث تم تحجير الزّواج المختلط وأي نوع مـن أنواع الزيجات بين أبناء الملّتين، فضلاً عن تحريم مؤاكلة المسيحيين اليهـود، ثم تلاها في مجمع كليرمونت سنة 535م تحريم تكليف اليهود بأية مهام عمومية، ثم في المجمع الثالث بأورليان سنة 538م أُقرّ تحريم الظهور علـى اليهود فـي الطرقات العامة على مـدى أسبوع الآلام. مـرورا بقرارات حـرق أسفـار التلمود وكتابـات أخرى في مجمـع توليديو الثانـي عشر سنة 681م، ثـم كان إلـزام اليهود بدفع العشور على غـرار المسيحيين وذلك في مجمع جيرونا سنة 1078م، كما اتخذ مجمع لاتيران الثالث 1179م قراراً سلبَ بموجبـه اليهود حقّ مقاضـاة المسيحيين أو الشهادة ضدّهم، ثم كان إلزام اليهـود بحمل علامات مميزّة على ألبستهم مع مجمع لاتيران الرابع 1215م، إلـى تحريم بناء البِيَع وذلك في مجمع أكسفـورد سنة 1222م، ثم إكراههم علـى السكنى داخـل غيتوات معزولة مع مجمع بريسلافيـا سنة 1267م، إلى منعهم من الحصول على درجات أكاديمية في مجمع بازيليا 1434م[1].

لقـد ظلّ الاتهـام المسيحي لليهود حاضراً فـي اللاوعي الجمعي، تبرّره سندات من التلمود تلخَّص فيها العداء اليهودي للمسيح، لعل أبرزها حديث التلمـود عـن عقوبة المسيح بإغراقه في خرء يغلـي في الجحيم[2]. أما اليوم ـ ورغـم تلـك التغيـرات المجتمعيـة الهائلـة، بعـد أن غدت تلـك القرارات الكنسيـة لاغيـة ـ فما فتئ التحـوّل الكنسي يجابه تحدّيـات جمّة، في تغيير قناعـات دينيـة باتت راسخة، تجـد سنداً لها في نصـوص إنجيلية صريحة الدّلالة، تُحمّل اليهودَ وزرَ ما تعرّض له المسيح، مثل: «ليكن دمه علينا وعلى

1 ـ Hans Küng, *Ebraismo*, Bur, Milano 2005, pp. 268-269.

2 ـ انظر: إسرائيل شاحاك: الدّيانة اليهودية وموقفها من غير اليهود، ترجمة: حسن خضر، ط: 1، دار سينا للنشر، القاهرة 1994م، ص: 28.

أولادنـا» (متّـى 26: 27)، أو «فشـقّ رئيس الكهنة ثيابـه وصرخ: «قد جدّف! ـ أي: المسيح ـ لا حاجة لنا بعدُ إلى شهود وها أنتم قد سمعتم تجديفه، فما رأيكم؟ أجابوا: «يستحقّ عقوبة الموت!» (متّى 26: 66ـ67).

ولئـن شكّل العهد القديـم وحدة تصوّرية دينية مشتركـة بين الجانبين اليهـودي المسيحي، فقد بقيت العلاقة بينهما مشوبة بالتوتّر، بسبب مقولة: «الشعـب قاتل الإله»، التي حافظت على ثباتهـا طيلة قرون، وحضرت بشكل دائـم فـي مخيال المسيحي، فلم يشفع التوافـق الضمني بين الجانبين على قسـم هائـل مـن الكتاب المقـدّس لتطهير العلاقـة بينهمـا أو حتى تلطيف الأجـواء. استمرّ الموقف اليهودي من المسيح أنه مجدّف، واستمرت الرؤية المسيحية لليهودي أنه وريث قتلة الرب، حتى دبّت تحوّلات سياسية صحبتها قراءات هرمنوطيقية، أجبرت الجانب المسيحي على إعادة التفسير لتاريخه وتوليـد مقولات جديدة، تلخّصت فيما يعرف اليـوم بمقولة التراث اليهودي المسيحي المشترك، التي تبقى مقولة غربية مسيحية بامتياز، لم يرحب بها اليهودي إلا بقدر ما كفلت له من مصالحة سياسية مع واقع غربي طارد.

لاهوت يهتدي بهدي السياسة

فـي أعقـاب القـرن الثامن عشـر ومع مطلع القـرن التاسـع عشر دبّت تحوّلات جوهرية في التعامل مع اليهود، سرَت في مجمل الدول الأوروبية، بلغ اليهـود أثناءها ـ وبشكل عام ـ مساواة ضاهت مستوى نظرائهم من الرعايا المسيحييـن، وبـات عدد منهم يحتلّ مواقـع مؤثّرة فـي المجتمع؛ لكن تلك المستجـدّات سرعـان ما اصطدمت ـ وبالخصوص مـع أواخر القرن التاسع عشـر ـ بنزعات قوميـة حانقة. في مناخ تلك التغيـرات الاجتماعية الحثيثة كان اليهود عرضة لاتهامات بممارسة نفوذ لا يتناسب مع أعدادهم، وبدا في الأفق ـ في جزء واسع من أوروبا ـ انتشار حركة عدائية لليهودية ذات أبعاد

اجتماعية وسياسية ودينية[1]، وكان أوج تلك الموجة بصدور قوانين عنصرية في كلّ من ألمانيا وإيطاليا استهدفت اليهود.

لقد بقيت سياسة الڤاتيكان تجاه اليهود مجارية في مجملها للخط السياسي النافـذ فـي أوروبا لا متجاوزة له. كان ردّ البابا بيـوس العاشر (1835ـ 1914م) فـي الخامـس والعشرين مـن يناير 1904م علـى طلب تيودور هرتـزل لتوطين اليهـود في فلسطين حاسماً، بقوله الشهير: «إن اليهود لم يعترفوا بربّنا يسوع المسيح، ولأجل ذلك ليس بوسعنا الاعتراف بالشعب اليهودي».

لكـن بسقوط النظاميـن الفاشي والنـازي، وانخـراط الكنيسة في بناء أوروبـا ما بعد الحـرب، توجّب عليها أن تحسم أمرهـا بشكل بات ـ لاهوتياً وسياسيـاً ـ مـع المسألة اليهوديـة، التي باتت شأناً غربيـاً، فانطلقت حركة مراجعـة غير معهـودة داخل الكنيسـة، وكان من جملة ما أُقـرّ في المجمع الڤاتيكاني الثاني ضمـن إعلان «في عصرنا» *(nostra aetate)*: «إن الكنيسة تشيـد بالتـراث الذي يجمعهـا باليهود، وتأسـف لما اقتُرف مـن كره وظلم وعـداء للسامية واليهود، لا بموجـب سياسي ولكن بورع ديني إنجيلي، وذلك في كل الأزمنة ومن أي طرف كان».

ومـا إن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها حتى دبّت تغيرات هائلة فـي السياسة العالميـة، كانت مدعاة لمجاراة الكنيسة تلك التحولات، فكيف لغرب احتضن اليهود بإنشاء دولة لهم أن تبقى كنيسته خارج ذلك المسار؟ لقـد أملت منعطفات حاسمة حدثت في العالـم خروجَ الكنيسة للعالم برؤية دينيـة منفتحـة ومتخلّصة مـن إرث الدهـور. أتى طرح الحضـارة اليهودية المسيحيـة للغرب بمثابة التكفير عن الذنب المقتَرف في حق اليهود، وذلك

1 ـ David I. Kertzer, *I papi contro gli ebrei. Il ruolo del Vaticano nell'ascesa dell'antisemitismo moderno*, Rizzoli, Milano 2001, p. 14.

بضمهم إلى مكوّن الحضارة المهيمنة، بعد أن سامتهم إجراءات الميز سوء العذاب طيلة قرون، وبعد أن همّت بالشروع الفعلي في إبادتهم العنصريتان: النازية والفاشية.

عقِب تلك التحولات الجذرية تناوب بابوات ما بعد الڤاتيكان الثاني (1962ـ1965م) بالعزم نفسه ـ من يوحنا الثالث والعشرين حتى الراهن بندكتوس السادس عشر، باستثناء قصير البابوية يوحنا بولس الأول (1978ـ1978م) ـ على السير قدماً لمحو مقولة «الشعب قاتل الإله»، التي جرّمت اليهود على مدى قرون عدّة، وعملوا على تطهير تاريخ حافل بالقرارات الكنسية الصادرة ضدّ اليهود.

لقد ظلّ الاتهام المسيحي لليهود حاضراً في اللاوعي الجمعي، تبرّره سندات التلمود تلخَّص فيها العداء اليهودي للمسيح

ولئن بدت تلك التوبة الڤاتيكانية محتشَمة في بدايتها، فقد اتخذت مع البابا البولوني الراحل يوحنا بولس الثاني بروزاً لافتاً. وقف الرجل داعماً تلك المستجدّات التي شهدتها الكنيسة قائلاً: شاعت في العالم المسيحي ـ ولا أقول في أوساط الكنيسة ـ تأويلات منحرفة وغير صائبة للعهد الجديد تعلّقت بالشعب اليهودي وإثمه المدّعى على مدى وقت طويل، حتى خلّفت عداء تجاه هذا الشعب[1]، وأمام هذا الماضي الذي لا يودّ الرحيل تجد الكنيسة عنتاً في اختلاق تأويلات أن من فتنوا المسيح وسعوا في قتله ليسوا يهوداً، وتجهد نفسها في البحث عن مبرّرات ومخارج لآي الإنجيل البيّنة، وهي تؤصّل إلى أنّ لكلّ أُمّة ما كسبت، وما كان لأُمّة أن ترث إثم سلفها.

1 ـ يوحنا بولس الثاني: خطاب في المشاركين في اللقاء الدراسي «جذور كره اليهود في الأوساط المسيحية» (31 أكتوبر 1997م).
L'osservatore Romano, 1 Novembre 1997, p. 6.

فممّـا يتجلّى مـن التاريخي الكنسي الحديـث أنّ مقولة التراث اليهودي المسيحـي مـا كانت حصيلـة تطوّرات مستقلّـة في اللاهـوت المسيحي؛ بل أملتهـا تحـوّلات فكريـة ومسـارات سياسية انسـاق فيها الغـرب والتكتلات اليهوديـة. وبالنظر إلى آفاق علاقات اليهود بالمسيحيين ألح بابوات ما بعد الڤاتيـكان الثاني على ترسيخ ذلك النهج المستجدّ؛ يقول البابا يوحنّا بولس الثانـي: نطلب من إخواننـا الكاثوليك وأخواتنـا الكاثوليكيات تجديد وعيهم بالجذور اليهودية لإيمانهم، كما ندعوهم لتذكّر أن يسوع المسيح منحدر من داود، وأن مريـم العـذراء والتلاميذ الأوائل من سلالة ذلك الشعب اليهودي أيضاً، وأن الكنيسة تستمدّ جذورها من تلك الزيتونة الطيّبة التي طعّمت بها أغصان الزيتون البرّي للأغيار[1]؛ وأن اليهود إخوتنا الأعزّة والأحبّة، وبمعنى مّا هم «إخوتنا الكبار» حقّاً[2].

سـار على الدرب البابـا الحالي أيضاً، رغم ما حـام حوله من انتقادات عنـد اعتلائـه سدّة البابوية، نظراً لماضيه الطفولـي النازي؛ لكن سرعان ما تبدّدت تلك المخاوف، فسبيل الكنيسة ليس خياراً يسطره نفر بمفرده؛ بل هو مسار تقرّه مؤسّسة؛ إذ سارع البابا إلى تهدئة الخواطر وأعلن التزامه بمتابعة السيـر في درب التقارب مع اليهود واليهوديـة، فكانت أولى زياراته إلى معبد دينـي غيـر مسيحي مقصدها بيعـة كولونيا، في أغسطس مـن العام 2005م، أثنـاء حلوله ببلده ألمانيا. فضلاً عن زيارتـه محتشدات أوشفيتز بيركينو في مايـو 2006م ولقاءاته في العام الأول مـن اعتلائه كرسي البابوية بأحبار من إسرائيـل وكذلك بحاخام مدينة روما، كمـا أدان البابا اللاسامية، باعتبارها

1 ـ يوحنـا بولـس الثانـي: خطاب في أعضـاء السلـك الدبلوماسي (15 يناير 1994)، AAS 86, (1994), 816.

2 ـ يوحنـا بولـس الثانـي: خطاب بمناسبة اللقـاء بالجالية اليهودية في رومـا (13 أبريل 1986)، AAS 784، (1986)، 1120.

خطيئة ضد اللّه وضد البشر ومسّاً من الجذور المسيحية، وهو ما فعله سلفه البابا يوحنا بولس الثاني أيضاً. ربما السنون الموالية لبابويته أثبتت ذلك التمشي الذي سار فيه، وهو المهندس الحاذق داخل الكنيسة الذي تكفّل بإرساء أُسس العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل، لما قرّر الڤاتيكان تطوير علاقاته مع كلّ من الفلسطينيين والإسرائيليين؛ ففي كتابيه الصادرين بعد توليه كرسي البابوية[1]، شغلت فكرة عميقة العملين، مفادها تثبيت ركائز وحدة التراث اليهودي المسيحي على دعائم لاهوتية، رغم أن المضمون العام يبدو للقارئ العادي تعليقاً وشرحاً لما ورد في الأناجيل بشأن رؤية المسيح للعالم.

فمنذ انعقاد مجمع الڤاتيكان الثاني والكاثوليكيّة تلهث لخطبِ ودّ الذين هادوا، وقد استنجدت في ذلك بالكردينال جون ماري لوستيجي اليهودي المتنصّر (توفي سنة 2007م)، في وقت مكث فيه أحبار التوراة غير مبالين بإنجاز قراءة دينية منفتحة على المسيحية معاملة بالمثل، وما فتئوا عند قرارات السنهدرين الصادرة مع مطلع القرن الميلادي الأوّل، التي أقرّت أن السيّد المسيح مجدّف. مع ذلك تستجدي حاضرة الڤاتيكان ـ في حاضرنا ـ التقارب من اليهود بشتّى السبل، وهم يمانعون تارة ويشترطون أخرى، موظّفة في ذلك كافة الإغراءات اللاهوتية، حتى توّجت ذلك المسار بوثيقة أعدتها لجنة العلاقات الدينية مع اليهودية، برئاسة الكردينال إدوارد إدريس كاسيدي، تعرف بوثيقة **نحن نتذكّر: تأمّلات في المحرقة**، صدرت في الڤاتيكان في الثاني عشر من مارس 1988م[2].

---

1 ـ Joseph Ratzinger Benedetto XVI, *Gesù di Nazaret: dal battesimo alla trasfigurazione*, Rizzoli, Milano 2007.

- *Gesù di Nazaret: dall'ingresso a Gerusalemme alla resurrezione*, Libreria Editrice Vaticana 2011.

2 ـ للاطلاع على فحوى تلك الوثيقة يمكن الرجوع إلى ترجمتنا المنشورة في مجلة «مدارات غربية»، فبراير 2005م العدد: 5 باريس، تحت عنوان: **نحن نتذكّر: تأمّلات في المحرقة**، ص: 95 وما بعدها.

وحدة الحضارة الهشّة

تبـدو محـاولات الغـرب والكنيسة لإخمـاد أيّ صوت مشـكّك في مقولة التراث المشترك حاسمة وجادة، برز ذلك جليّاً مع الإشكال الذي أثاره رجل الدين الكاثوليكي ريتشارد ولياسمون؛ فعلى خلفية الحرمان المسلَّط من قِبل البابـا الراحل يوحنا بولس الثاني عليه وعلى الأساقفة الثلاثة: برنار فلّاي، وألفونسو دي غالاريتا، وتيسيي دي ماليري، وكذلك على من تولّى ترسيمهم: المونسنيـور مارسـال لوفابر (توفّي سنة 1991م) في الثلاثين من شهر يونيو مـن العـام 1988م في قلعته السويسرية بإيكون؛ كانـت مصالحة الكنيسة مع تلك الجماعة محرجة لليهود.

ذلك أن اللوفابريين مثّلوا ولا يزالون خطّاً رؤيوياً محافظاً داخل الكنيسة، يتناقض مع مفهوم الحضارة اليهودية المسيحية، وهو ما جعلهم يصطدمون لاهوتياً وفكرياً بكنيستهم، جراء ما يرفضونه من قرارات المجمع الڤاتيكان الثانـي، ومـا يعدّونـه انحرافـاً، مثـل التحويـر في نـصّ القـدّاس اللاتيني الإشكالي، المعروف بالتريدنتيني.

يوم 21 يناير من العام 2009م سعت كنيسة روما لطيّ صفحة تلك الفتنة ورفـع ذلك الحرمان المسلَّط؛ ولكن قبول اللوفابريين بالدخول مجدّداً تحت سقف الكنيسة وازاه إذعان إلى مطلبهم بالعودة إلى القدّاس اللاتيني (الذي تتضمّن بعض فقراته دعوة لليهود بالتوبة والدخول في كنف الكنيسة)، وهو قـدّاس يتناقـض في جوهره مـع مقرّرات وثيقة «نحن نتذّكـر»، التي تلخّص سياسة الڤاتيكان مع اليهود، وتتضمّن إجلالاً لهم وإقراراً بالمحرقة، بحسب الرواية الإسرائيلية.

ولكـن بالعودة إلى القـدّاس اللاتيني ـ الـذي أصرّ عليـه اللوفابريون ـ شهـدت علاقة الڤاتيكان مع اليهود ومع إسرائيـل توتّراً مجدّداً، ولم يتوقّف

اللوفابريـون عنـد ذلك الحـدّ ـ بإصرارهم على صيغة القـدّاس التي تسيء لليهـود ـ بل إن الأسقف ريتشـارد وليامسون أنكر حصول المحرقة وما شاع حولها من غرف للغاز، واعتبرها خدعة تاريخية وزيفاً. كانت المسألة مربكة؛ لأن هنـاك تجريماً لـكل من يساوره شكّ في هذا الموضوع، سواء من داخل الكنيسـة أو من خارجها في الأوسـاط الغربية، الأمر الذي أثار غضب كبير حاخامـات إيطاليا أوديـد وايدر، معتبراً العملية نـكأ للجراح بين الطرفين، وامتدّ الغضب إلى أن أعلن الحاخام داڤيد روزن ـ رئيس الرابطات اليهودية العالمية ـ أن رفع الحرمان على جاحد المحرقة ـ ريتشارد وليامسون ـ يشكّل تهديداً لمسار المصالحة بين الكنيسة الكاثوليكية والشعب اليهودي.

لقـد حقّـق التقارب اليهـودي المسيحي ـ خـلال الفتـرة المعاصرة ـ تقدّمـاً كبيـراً علـى المستـوى السياسـي[1]، وربما علـى مستـوى الخطاب الدينـي الرسمـي أيضاً؛ بَيْـدَ أن النفور الشعبي ـ فـي عاصمة الكاثوليكية مثلاً ـ لا يزال ماثلاً، فحين عُيّن الصحفي الإيطالي باولو ميالي ـ اليهودي الديانـة ـ علـى رأس مؤسّسة قناة «الراي» الرسميـة سنة 2003م؛ اضطرّ القائمـون على الشـأن الإيطالي إلى تنحيته جـرّاء الضغط الشعبي وبفعل الحملة التي واجهها بسبب يهوديته، وبالمثل خلال العام 2008م لما نُشرت قائمة على صفحة ويب في الشبكة العنكبوتية، سميت بـ«القائمة السوداء»، وضمّـت أسماء 162 أستاذاً وباحثاً يهودياً يعملون في الجامعات الإيطالية، وقد أتت امتداداً لتراكم من التوترات عرفتها الساحة الأكاديمية الإيطالية والأوروبيـة عموماً مع اليهود، أعـادت للأذهان تلك الفعلة ذكرى القوانين العنصريـة الصـادرة بإيطاليـا سنة 1938م، التـي صوّت عليهـا البرلمان

1 ـ وإن بقيـت معارضـة يهودية لتطْويب البابا بيوس الثاني عشـر ونعته ببابا هتلر، جراء صمته إبّان الحقبة النازية.

وصـادق عليها الملـك. اتّهَم مصمّمو صفحة الويـب ـ التي سارعت وزارة الداخليـة إلى حجبها ـ مجموعـةَ الأساتذة والباحثيـن بمناصرة إسرائيل وسعيهـم إلى تشكيل لوبـي أكاديمي يهودي لخدمة أغراض الصهيونية في إيطاليـا، فضلاً عمّـا حثّت عليه الصّفحـة لوقْف التعاون بيـن الجامعات الإيطاليـة والجامعات العبرية، معتبـرة استعمال الشعب الايطالي أداة من طرف أقلية عرقية مؤدلَجة ـ ومتحالفة ثقافياً مع كيان سياسي خارجي ألا وهو إسرائيل ـ من الانزلاقات الخطيرة.

ولكـن في ظلّ تلـك التجاذبات تبدو الدولة حاضرة بالمرصاد لكل ما يمـس من مفهـوم الحضارة المشتركـة أو ما قد يسيئ إليـه، فقد سُحب مـن المكتبـات الإيطاليـة خلال 2008م كتـاب «أعياد فصـح دامية: يهود أوروبـا والقتـل الشّعائري»[1]؛ لمـا فيه من مراجعة جسـورة لحيثيات التّهم والمحاكمـات والاعترافـات ذات الصّلة بالقتل الشّعائـري للأطفال، الذي نسـب لأفراد وجماعـات يهودية من قبـل محاكم التّفتيش فـي أوروبا في العصـر الوسيـط، ما بين 1100 و1500م، في المنطقـة النّاطقة بالألمانية، الممتدّة بين رينو والدّانوب وآديجي. خلص فيه المؤرّخ إلى التورّط الفعلي لبعـض أبناء ملّته اليهودية فـي ممارسات القتل الشعائري، بغرض إضافة دم الضّحايـا للفطيـر المقـدّس، مع أن المـؤرّخ أرييل طُـوَاف هو يهودي وأستاذ التّاريخ الوسيط وتاريخ عصر النّهضة في جامعة بار إيلان، وابن حاخام روما الأسبق إيليو طواف.

تراث جامع أم مانع؟

لمـا تنبّه العرب إلى مقولة «التراث اليهـودي المسيحي المشترك» ـ التي باتـت علامة بارزة في خطـاب الغرب وفي خطاب الكنيسـة على حدّ سواء ـ

1 ـ Ariel Toaff, *Pasque di sangue. Ebrei d'Europa e omicidi rituali*, Il Mulino, Bologna 2008.

ذهب في ظنّ الكثيرين أن المقولة تستهدف بالأساس عزل أتباع الدين الإسلامي وموالاة الذين هادوا أينما كانوا، فضلاً عن الريبة التي لازمت العرب بشأن آثار ذلك التقارب المسيحي اليهودي على مسألة القدس وعلى أرض فلسطين عموماً. وهو ما جعل مداولات المجمع الڤاتيكاني الثاني ـ إبّان مناقشة مقولة التراث اليهودي المسيحي المشترك ـ تلقى اعتراضات وانتقادات من قبل ممثّلي الكنائس الشرقية. وهي في الحقيقة ريبة مبرّرة؛ إذ نجد من الغربيين من انتقد مفهوم الحضارة اليهودية المسيحية ناعتاً إياه بِـ «الهزْلي»، فهو لا يضاهي من حيث الواقع والأثر مفهوم الحضارة الإسلامية المسيحية البالغ النفاذ والتطوّر. يقول الأمريكي ريتشارد و. بوليي أستاذ التاريخ الإسلامي: «لا غرو أنّ القبول بمقولة «الحضارة اليهودية المسيحية» كمرادف لـ«الحضارة الغربية» يبيّن أن التاريخ والمصير لا يلتقيان بالضرورة، فمن له معرفة ـ ولو متواضعة ـ بتاريخ العلاقات اليهودية المسيحية طوال الألفيتين الأخيرتين يدرك بيسر الطابع الهزلي لمفهوم يجمع بين تقليدين دينيين وجد كل منهما نفسه ـ على مدى مراحل واسعة ـ في خلاف بيّن مع الآخر»[1].

لقد حقق التقارب اليهودي المسيحي تقدماً كبيراً على المستوى السياسي، وربما على مستوى الخطاب الديني الرسمي أيضاً

ففي الوقت الذي ترمي فيه «الحضارة اليهودية المسيحية» جذورَها التاريخية داخل أوروبا، بصفتها إجابة عن الكوارث الحاصلة أثناء القرنين الأخيرين، تتعلّق «الحضارة الإسلامية المسيحية» بجذور تاريخية وجغرافية مختلفة، ولها تأثيرات على مشاغلنا بشأن الحضارة المعاصرة[2].

1 ـ Richard W. Bulliet, *La civiltà Islamico Cristiana. Una proposta*, Editori Laterza, Roma-Bari 2005, p. 8.

2 ـ Ibid, p. 13.

لا شـكَّ أنّ هنـاك مصالـح يهودية مسيحيـة مشتركة بيّنة فـي التاريخ الحديـث، وهـو ما دفع نحو أشكال مـن التقارب والتعاون المتنـوّع، وأما أن نردفهـا بأن هناك تراثاً يهوديـاً مسيحياً مشتركاً ـ دون أن نضمّ له الجانب الإسلامـي أو نتعمّد إقصـاءه ـ فيبدو أن ذلك أمر فيه إجحاف، ولا يستقيم تاريخيـاً وعلمياً، فالمكوّن اليهودي في الحضـارة الغربية بات جلياً ومعترفاً بـه لأسباب سياسية، ويوازيه مكوّن إسلامي في الحضارة الغربية غدا خفيّاً ومبعداً لأسباب سياسية أيضاً.

في كتاب «اليهود والمسيحيون: أسطورة التراث المشترك» يذهب الكاتب اليهـودي يعقوب نوزنر إلى ما يلغـي ذلك الترابط بين اليهودية والمسيحية، وذلك من زاوية تاريخية وعقدية قائلاً: ينبغي إدراكهما كمنظومتين دينيتين مستقلتين كلياً، وبالتالي لا يجوز حتى الحديث عن تولّد المسيحية من رحم اليهودية؛ لأن كلتا المنظومتين ـ في مستوى المرحلة التكوينية (القرن الثاني ـ القـرن الرابع) ـ كانتا متكوّنتين من أنـاس مختلفين وتتحدثان عن أشياء مختلفة، ويتوجّه كل منهما إلى رهط مختلف، فالطروحات التراثية التي ترى اليهود والمسيحيين «أقارب» من جانب ديني هي بمثابة أسطورة؛ لأن كليهما يقرأ العهد القديم؛ لكن لكل قراءته وتأويله وخلفيته[1].

والملاحظ أنه في الوقت الذي تبنّت فيه الكنيسة مقولة التراث اليهودي المسيحـي المشتـرك، وسعت فـي الدعاية لهـا، عمدت فـي الآن نفسه إلى الخـوض ـ بشكل ملـحّ ـ في نوع من الحوار مع المسلميـن أيضاً. هدف من جملة ما هدف له إلى تطبيع العلاقات الدينية، بعد قرون توزعت بين الوئام والخصام؛ بَيْدَ أن مقارنة حصيلة تينك التجربتين تبدو متفاوتة؛ حيث بات

1 ـ لمتابعة ضافية لأطروحات المغايرة لا التكامل لدى يعقوب نوزنر، انظر كتابه:
Jacob Neusner, *Ebrei e cristiani. Il mito di una tradizione comune*, San Paolo, Milano 2009.

العـرب والمسلمـون عرضـة ـ وبشـكل متواصـل ـ إلى عديد أصنـاف الميز والضغط والحملات الإعلامية في الغرب في يومنا هذا، رغم مشروع الحوار الـذي ودّت الكنيسة الغربيـة تدشينه مع العالم الإسلامـي، ولم يخلّف أثراً فـي تغيير التحامـل الغربي ضد المسلمين، ولعل الأمـر عائد إلى أن موقف الكنيسة رجراج متموّج تجاه المسلمين، ولم يشهد تحوّلاً فعلياً داخل الغرب، فالانتقادات للمسلمين غالباً ما تحفل بها الصحافة الكنسية أو غير الكنسية ـ على حدٍ سواء ـ بمجرد حصول أي حدث يمسّ مسيحيين في البلاد العربية والإسلاميـة، ولو دون تثبّـت؛ يقابل ذلك الانتقاد من الجهـة الأخرى إلحاح فـي الخطاب المسيحي على يهودية المسيح ويهودية الحواريين، وهو خطاب متكرّر ولافت في المقول الفاتيكاني المعاصر. وقد كان لا بد من توضيح: هل كانت اليهودية في ذلك العهد الغابر لها مفهوم ديني أم مفهوم عرقي؟ ربما من هذا الجانب تجد بعض القراءات مشروعيتها باعتبار المسيح قبل ثورته علـى رجالات الهيكل كان منضوياً تحت ديانة موسى بالمفهوم الديني وليس بالمفهوم العرقي المروَّج له اليوم، وإلّا أين نضع مسيحيي بلاد الشام اليوم باعتبارهم امتداداً لذلك التاريخ القديم؟

مـن هنا يبقى مفهوم الملّة الإبراهيمية ـ في الراهن الحاضر ـ مفهوماً إسلاميـاً بارزاً، وليس هناك من الأديان الثلاثة ما أقرّ به وسعى إليه مثلما فعـل الإسـلام. أمـا مفهوم الحضـارة اليهوديـة المسيحية فيبـدو دون تلك الرحابـة بكثيـر، وهنا يكمن الفارق الجوهري فـي دلالات الانغلاق والانفتاح في المفهومين.

هل شارف مفهوم «الحضارة اليهودية المسيحية» منتهاه؟

إن تتبّـع آثار المفهوم ـ من حيث نجاحاته وإخفاقاته ـ يُظهر أنه ضمن مدلوله التراثي الديني لاقى شيئاً من الانحباس، بفعل فتور الطرف اليهودي

وقلـة حماسته للمقـول المسيحي، وربما كان الانتقاد الصادر منه أوفر حظاً مـن إقـراره بالوفاق. إلى أن تلقّـف المفهومُ فكرَ صـدام الحضارات، الذي وجـد مجـالاً خصباً منذ تواري الاتحـاد السوفياتي وبـروز العالم الإسلامي كإشكاليـة سياسية، فلاقـى المفهوم انتعاشـاً بتنزيله إلى معتـرك الصراع الحضاري، ما أخرجه من الانكماش داخل الدائرة الدينية إلى التمدّد داخل التفاعلات الحضارية.

فقـد مثّلت إشكالية تبْيئـة التحديث في العالم الإسلامـي ـ إضافة إلى تعثّر المسار الديمقراطـي ـ مبرّراً لأنصار المركزية الغربية للحكم على أن جوهـر الإشكاليـة في تلك المجتمعـات الإسلامية كامن فـي البنية الثقافية الدينية[1]، التي باتت مطروحة في مقابل البنية الثقافية الغربية ذات الجذور التوراتية الإنجيلية كما يُزعم.

وبقدر ما تعثّر المفهوم في إرساء تلك الوحدة اليهودية المسيحية ـ على أسـس دينيـة ـ حقق بعض النجاحـات في حفز الهمم علـى أسس سياسية، وصـادف فـي العقـود الأخيـرة ـ التي بات فيهـا العالم الإسلامـي في عين العاصفـة السياسية الغربية ـ أن أججـت أطروحات صاموئيل هنتنغتون تلك الـرؤى التي وقف فيها الغـرب وإسرائيل من جانب، مقابل تكتلات حضارية غيـر ديمقراطية بحسب توصيفه من جانب آخر. لم يبق هنتنغتون فرداً في طروحاتـه؛ بـل تداعى العديد من الكتّاب إلى ذلـك المفهوم المسيَّس، ممن تناولوا إشكاليات العالم الإسلامي من وجهة نظر مانوية، قابلت بين الغرب المتحضـر والعالم الإسلامي المتخبّط؛ لكن الفتـور تسرّب مجدداً إلى تلك الطروحات لِما تَعِد به من مأزق إنساني.

1 ـ Renzo Guolo, *L'Islam è compatibile con la democrazia?*, Laterza, Bari – Roma 2007.